

## استراحة المسافر ( ١ )

أخي المسافر أدعوك الآن لقليل من الراحة والترويح عن النفس .  
 أدعوك إلى محطة من محطات السفر الترفيحية لتستعين بها على وعشاء  
 السفر ومشقة الطريق . فإننا بحاجة إلى ساعة وساعة ، ساعة للجد  
 والحيوية ، وساعة للراحة والترويح عن النفس خشية الملل والسآمة فإن  
 القلوب إذا ملّت كلّت وإذا كلّت عميت . لذلك سيكون لنا بعد كلّ مرحلة  
 من رحلتنا مع «أنيس المسافر» استراحة ترويحوية ووقفة ترفيحية .

\* قال أبو الأسود لابنه : يا بني إن ابن عمك يريد أن يتزوج ويحب أن  
 تكون أنت الخاطب فتحقق خطبة .

فبقي الغلام يومين وليلتين يدرس خطبة ، فلما كان في الثالث قال أبوه :  
 ما فعلت ؟ قال : قد حفظتها . قال : وما هي ؟ قال : الحمد لله نحمده  
 ونستعينه ونتوكل عليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول  
 الله ، حي على الصلاة حي على الفلاح . فقال أبوه : صبراً لا تُقِم الصلاة  
 فإني على غير وضوء .

\* يقال إن الأعمش - رحمه الله - كان له ولدٌ مغفل فقال له : اذهب فاشتر  
 لنا حبلاً للغسيل . فقال : يا أبة ، كم طوله ؟ قال : عشر أذرع . قال : في  
 عرض كم ؟ قال : في عرض مصيبيتي فيك .

\* سأل رجلٌ الشعبي عن المسح على اللحية فقال : خللها . قال الرجل :  
 أتخوف أن لا نبلّها . فقال الشعبي : إن تخوّفتَ فانقعها في الماء من أوّل  
 الليل !

\* لقي رجلٌ الشعبي، وهو واقفٌ مع امرأته، فقال الرجل: أيتكما الشعبي؟ فأوماً الشعبي إلى المرأة وقال: هذه!  
\* وسأله رجل فقال: هل يجوز للمُحْرِم أن يحكَّ بدنه؟ قال: نعم. فقال الرجل: مقدار كم؟ قال: حتَّى يبدوَ العظم!

### شهيد الحب :

قال محمد بن الحجاج، راوية بشار بن برد: مات لبشار حمارٌ، فقال: رأيت حماري البارحة في النوم فقلت له: ويلك متٌ؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً عند بابه فعشقتها، فمتٌ وأنشد:

سيدي خذ لي أمانا	من أتان الأصبهاني
إن بالباب أتاناً	فضَلتْ كلَّ أتانٍ
تَيَمَّنْتِي يوم رحنا	بثناياها الحسانِ
وبحسن ودلالٍ	سَلَّ جسمي وبراني
ولها خدٌ أسيلٌ	مثل خد الشنفراني
فَبِها متٌ ولو عَش	تُ إذا طال هواني

فقال رجل: يا أبا معاذ، ما الشنفراني؟ قال: هو شيء يتحدث به الحمير، فإذا لقيت حماراً فاسأله.

## آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهَا ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾  
 أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ  
 حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِ  
 هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا  
 رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ هُمْ لَا  
 يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ  
 خُلَفَاءَ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ  
 فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبِيًا وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ  
 تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ  
 مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذَا قُرْبَىٰ ﴿٦٤﴾ أَمَّنْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ ۗ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾  
 بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۗ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۗ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ أَيْدَا كُنَّا تَرَابًا ۗ وَإِنَّا أَبَاوْنَا ۗ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ  
 وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ۗ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا  
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا  
 يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ۖ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلِ عَسَىٰ أَنْ

يَكُونُ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ  
 وَلَئِنْ أَكْثَرْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا  
 يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

[سورة النمل]

من أخبار المسافرين (١) أبونواس يسافر إلى مصر

الشاعر العباسي الشهير - أبونواس - الحسن بن هانئ المتوفى عام ١٩٥هـ سافر من بغداد إلى مصر ليمدح أبانصر الخصيب بن عبد الحميد صاحب ديوان الخراج بها، وذلك جرياً على عادة الشعراء في رحلاتهم للملوك والأمراء والكبراء بحثاً عن المال والعطايا والهبات.

وهذه القصيدة تعتبر من أروع القصائد في الأدب العربي وقد شرقت وغربت وحفظها الناس وأعجبوا بها أيما إعجاب قديماً وحديثاً. قيل عنها: والله ما تصلح هذه إلا في الرسول ﷺ. وقد وصف فيها رحلته وصفاً عجيباً وألبس ممدوحه ثوباً قشيباً. وحتى لا أطيل عليك أخي المسافر فقد اخترت بعضاً من أبيات هذه القصيدة وهي أجمل شيء فيها:

أجارةً بيئتنا أبوك غيورٌ	وميسورٌ ما يُرَجَى لديك عسيرٌ
وإن كنت لا خِلماً، ولا أنت زوجةٌ	فلا برحتِ دوني عليكِ ستورٌ
وجاورتُ قوماً لا تزاوَرَ بينهم	ولا وصلَ إلا أن يكونَ نُشورٌ
فما أنا بالمشغوفِ ضربةً لازِبِ	ولا كلُّ سلطانٍ عليّ قديرٌ
تقولُ التي عن بيتها خفَّ مركبي	عزيرٌ علينا أن نراك تسيّرٌ
أما دون مضرٍ للغنى مُتطلبٌ	بلى إن أسبابَ الغنى لكثيرٌ
فقلتُ لها واستعجلتها بوادرٌ	جرتُ فجرى في جزيهنَّ عبيرٌ
ذريني أكثرُ حاسديكِ برحلةٍ	إلى بلدٍ فيه الخصبُ أميرٌ
إذا لم تَرُ أرضَ الخصبِ ركابنا	فأيّ فتى بعدَ الخصبِ تزورُ

فتى يشتري حسن الثناء بماله  
فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه  
فلم ترّ عيني سؤدداً مثل سؤددٍ  
فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتى  
زهاً بالخصيب السيف والرّمح في الوغى  
جوادٌ إذا الأيدي كففن عن الندى  
له سلفٌ في الأعجمين كأنهم  
وإني جديرٌ إذ بلغتك بالمنى  
فإن تولني منك الجميل فأهلهُ

\* \* \*

ويقال إن أبانوس لما عاد إلى بغداد مدح الخليفة، فقيل له: وأي شيء  
تقول فينا بعد أن قلت في بعض نوابنا:  
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب تزور  
فأطرق أبونواس ساعةً ثم رفع رأسه وقال:  
إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما تُثني وفوق الذي تُثني  
وإن جرّت الألفاظ منا بمدحةٍ لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

ابن دراج يعارض أبانواس

ذكرنا الشهرة البعيدة التي حظيت بها قصيدة أبي نواس، مما جعل  
الشعراء يحاولون معارضتها ومحاكاتها، وهذا الشاعر ابن دراج القسطلي  
المتوفى سنة ٤٢١هـ يطلب منه المنصور بن أبي عامر أن يعارض قصيدة

أبي نواس فيستجيب لذلك ويقول قصيدة رائعة في نظري أنها لا تقل في روعتها وجمالها عن قصيدة أبي نواس بل ربما فاقه في بعض أبياتها. وإليك جملة من أبياتها فهي قصيدة طويلة وقد استهلها بالحوار مع زوجته كما فعل أبو نواس، فقال:

ألم تعلمي أن الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى      وأن بيوتَ العاجزين قُبُورُ  
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ، وإنه      لِتَقْبِيلِ كَفِّ العَامِرِيِّ سَفِيرُ  
دَعِينِي أَرْدُ مَاءِ المَفَاوِزِ آجِنًا      إلى حيثُ مَاءُ المَكْرُمَاتِ نَمِيرُ  
فإنَّ خَبِيرَاتِ المِهَالِكِ ضُمَّنَّ      لِرَاكِبِهَا أنَ الجَزَاءِ خَطِيرُ  
ومنها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

ولما تَدَانَتْ لِلوَدَاعِ وَقَد هَفَا      بَصْبَرِي مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ  
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ المَوَدَّةِ وَالهَوَى      وَفِي المَهْدِ مَبْغُومِ النَّدَاءِ صَغِيرُ  
عَمِيٍّ بِمَرْجُوعِ الخَطَابِ وَلِحِظِهِ      بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النَفُوسِ خَبِيرُ  
تَبَوًّا مَمْنُوعِ القُلُوبِ وَمُهَّدَتِ      لَهُ أَذْرَعُ مَحْضُوفَةٌ وَنُحُورُ  
فكُلُ مُفَدَّاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعِ      وَكُلُ مُحَيَّاةِ المَحَاسِنِ ظِيرُ  
عَصِيَّتُ شَفِيعِ النَفْسِ فِيهِ وَقَادِنِي      رَوَاحُ لِتَذَابِ السُّرَى وَبُكُورُ  
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَّتْ بِهَا      جَوَانِحُ مِنْ دُعْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ  
لِئِنْ وَدَّعْتَ مَنِّي غَيُورًا فَإِنِّي      عَلَيَّ عَزَمْتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغِيرُ  
وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالهَوَاجِرُ تَلْتَطِي      عَلَيَّ وَرُقْرَاقُ السَّرَابِ يُمُورُ  
أَسْلَطُ حَزَّ الهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا      عَلَيَّ حَزُّ وَجْهِي، وَالأَصِيلُ هَجِيرُ  
وَاسْتَنَشَقُّ النَكْبَاءَ وَهِيَ لَوَافِحُ      وَأَسْتَوَطِي الرَّمْضَاءَ وَهِيَ تَفُورُ  
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الجَبَانِ تَلَوُّنُ      وَلِلدُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيرُ

لَبَانَ لَهَا أَنِي مِنَ الْبَيْنِ جَارِعٌ  
 أَمِيرٌ عَلَى غَوْلِ التَّنَائِفِ مَا لَهُ  
 وَلَوْ بَصُرَتْ بِي وَالسُّرَى جُلُّ عَزْمَتِي  
 وَأَعْتَسِفُ الْمَوْمَاةَ فِي غَسَقِ الدُّجَى  
 وَقَدْ حَوَّمتْ زَهْرُ النَّجُومِ كَأَنَّهَا  
 وَدَارَتْ نَجُومُ الْقَطْبِ حَتَّى كَأَنَّهَا  
 وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرُقَ الْمَجْرَةِ أَنَّهَا  
 وَثاقِبُ عَزْمِي وَالظَّلَامُ مُرَوِّعٌ  
 لَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ الْمَنَى طَوْعُ هَمَّتِي  
 وَأَنِي عَلَى مَضِّ الْخُطُوبِ صَبُورٌ  
 إِذَا رِيحَ إِلَّا الْمَشْرِفِيُّ وَزِيرٌ  
 وَجَرَسِي لِجَنَانِ الْفَلَاةِ سَمِيرٌ  
 وَلِلْأَسَدِ فِي غَيْلِ الْغِيَاضِ زَيْبِرٌ  
 كَوَاكِبُ فِي خُضْرِ الْحَدَائِقِ حُورٌ  
 كَوْوسٌ مَهَأَ وَالِي بَهْنِ مُدِيرٌ  
 عَلَى مَفْرَقِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ قَتِيرٌ  
 وَقَدْ غَضَّ أَجْفَانَ النَّجُومِ فُتُورٌ  
 وَأَنِي بَعَطْفِ الْعَامِرِيِّ جَدِيرٌ  
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ، وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مِنْهَا كَفَايَةٌ .

## مسافر في القطار

يقول إيليا أبو ماضي :

سَرَى يَطْوِي بِنَا الْأَمْيَالَ طَيًّا  
فَلَمْ نَدْرِ وَجُنْحُ اللَّيْلِ دَاجٍ  
بِنَا وَبِهِ حَيْنٌ وَاشْتِيَاقٌ  
وَلَكْنَا وَسَعْنَا الشُّوقَ ذَرَعًا  
وَسَمَّيْنَا الَّذِي نُخْفِيهِ وَجَدًا  
غَفَا صَحْبِي وَبَعْضُهُمْ تَغَافَى  
جَلَسْتُ أَرَقِبُ الْجُوزَاءَ وَحَدِي  
يَسِيرُ بِنَا الْقِطَارُ وَنَحْنُ نَرْجُو  
وَأَقْسِمُ لَوْ أَحَدْتُهُ بِمَا بِي  
إِلَى الْبَلَدِ الْأَمِينِ إِلَى كِرَامٍ  
إِلَى الْمُزْدَادِ وَدَهْمٍ لَدِينَا  
إِذَا سَتَرْتُ مَحَبَّتَهَا قُلُوبٌ  
فِيَا إِخْوَانَنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ  
طَوِينَاهَا سَبَابِ سَاعَاتٍ  
وَلَوْلَا أَنْ تَسِيرَ بِنَا إِلَيْكُمْ  
كَمَا تَطْوِي السَّجَلَ أَوْ الْإِزَارَا  
أَبْرَقًا مَا رَكِبْنَا أَمْ قِطَارَا  
وَلَوْلَا ذَانِ مَا سَرْنَا وَسَارَا  
وَضَاقَ بِهِ فَصَعَدَهُ بُخَارَا  
وَسَمَّيْنَا الَّذِي يُخْفِيهِ نَارَا  
وَلَمْ أَذِقِ الْكُرَى إِلَّا غِرَارَا  
كَمَا قَدْ يَرُقُّ السَّارِي الْمَنَارَا  
لَوْ اخْتَصَرَ الطَّرِيقَ بِنَا اخْتِصَارَا  
لَحَلَقَ فِي الْفَضَاءِ بِنَا وَطَارَا  
يُرَاعُونَ الْمَوَدَّةَ وَالْجَوَارَا  
إِذَا زَدْنَا صِفَاتَهُمْ اخْتِيارَا  
فَحُبِّي لَا أَطِيقُ لَهُ اسْتِيارَا  
أَصِيخُوا كِي أَخَاطِبُكُمْ جِهَارَا  
تَسِيرُ الْوَاحِدَاتُ بِهَا حِيَارَى  
رَكَابُنَا مَشِينَاهَا اخْتِيارَا

ويقول الشاعر محمد يوسف مقلد في قصيدته:

### ديار وقطار

ألا ودّع، فقد صفر القطار  
فما في القلب غير سعير شوق  
هما في كل آونة وأرض  
وهل بعد النوى والحب إلا  
فأي صباية عاشت، وأبقت  
وأي نوى تصان من الرزايا  
ذر الجمرات تحلم في حشانا  
غنينا بالعواطف في هوانا  
إذا استعرت، فقل تلف المعنى  
حنيني في صميمي ذو جناح  
نجوم الليل وهي معلقات  
وعين الشمس، وهي تغيب عنا  
ولو سمع الزمان أنين ثكلى  
تساورنا على من ودعونا  
تركناهم على شوق حيارى  
نود لو أن يكون لنا إليهم

وبانت عن نواظرنا الديارُ  
وما في الفكر إلا الإذكارُ!  
رفيقانا إذا شط المزار  
هما، أم هل خبا لهما أوارُ  
على كبدٍ، وأي حشاً تجار  
ويؤمن في نواحيها العثارُ؟  
فقد قرّت، وطاب لها القرار!  
هي السلوى لنا، وهي اليسار  
وإن غنّت فقل أين الهزار  
يرفرف في ضلوعي وهو نار  
يطير من الحنين لها شرار  
يبين من الفراق بها احمرار  
لعاجله من الحزن انتحار  
هواجس حولها نشأ الحوار  
يُصان إلى الأسى عنهم شعار  
جوانح للقاء بها يُطار!

لقد شهد القطار أسي وداع      فلم يخطر له إلاّ الفرار  
 ترفق يا بعاد بقلب أم      وهيفاء براها الانتظار  
 لتلك، وهذه داران: دارٌ      بقلبي، أختها في الشمس دار  
 فأني سرتُ كان القلب بعضاً      وأني كنت للشمس انتشاراً؟

### القروي والقطار

وهذا الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يصف قطاراً أقله بين بيروت  
 وزحلة في عام ١٩١١م.

و ناقلني حيث تحلو في الهوى نُقِلُّ      يمشي به الدافعان الشوق والأمل  
 كأنه جبلٌ يمشي على جبل      يرسو إذا شاء طوراً ثم ينتقل  
 ما عاقه في الشرى بردٌ ولا مطرٌ      كأن لطم الحيا في وجهه قُبَلُ  
 يمشي الهويني كخودٍ ناعس نهضت      عند الضحى لم يزل في جفنها ثقل  
 ما سار نحو الشام الميلَ مكتملاً      إلاّ وجفن الدجى بالفجر مكتحل  
 طوراً تخفت إلى استقباله قُلُلٌ      وتارة تنشي من دربه قللُ

### التراموي في الأستانة

الشاعر معروف الرصافي يسطر نقدَه وسخريته بالتراموي في الأستانة  
 وذلك في عام ١٩٠٩م.

مرّ الترام فقيلَ اركب فقلت لهم      ذلّ امرؤ كانَ مركوباً له الكسلُ  
 أما ترى وضعافُ الخيل تشحبه      كأنه جبل في الأرض ينتقل

يحكي السُّلْحَفَاءُ فِي عَرْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ  
تَرَى بِهِ أَوْجُهَ الرُّكَّابِ عَابِسَةً  
فِي جَانِبِيهِ وَفِي أَعْلَاهُ قَدْ كَتَبُوا  
«قَدْ يَدْرِكُ الْمَتَانِي بَعْضَ حَاجَتِهِ  
أَمَسْتُ بِهَا فِي التَّانِي يُضْرِبُ الْمَثَلُ  
مِنْ فَوْقِهَا شَجَرٌ مِنْ تَحْتِهَا مَلَّلُ  
بَيْتاً تَمَثَّلُ فِي إِنْشَادِهِ الْأَوَّلُ  
وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجَلِ الزَّلَلُ»

## من أقدم أسفار البشرية

سفرٌ من الأسفار البعيدة الأمد، في مرضاة الواحد الأحد، سفرٌ يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، مهمٌ أهمية البيت المجيد، مباركٌ بركة زمزم والمقام، وطاهرٌ طهارة البيت الحرام، يتصدر الأسفار الإيمانية، ويرسم طريق الرفعة للإنسانية، وتتجلى فيه آثار الرحمة الربانية، خبره عجيب، نبأه غريب، أحداثه مثيرة، عظاته كثيرة، فائدته كبيره.

إنه سفر أبي الأنبياء وإمام الحنفاء، خليل رب العالمين، عدو الشرك والمشركين، رسم الطريق للهداة بعده، وكان أمة وحده ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ له عند رب العالمين أعظم الحظوة ولجميع المؤمنين فيه أسوة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾.

وإبراهيم عليه السلام هو من أول المسافرين الذين تنقلوا في البلدان فراراً بالدين من عباد الأوثان، وأعداء الواحد الديان. فقد سافر من أرض الكلدانيين (بابل) إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس، وسافر إلى مصر، ثم عاد إلى بيت المقدس ثم سافر بعد ذلك إلى مكة. وحدثنا هنا عن سفره من بيت المقدس إلى مكة المكرمة.

فتعال معي نتأمل أحداث هذا السفر العظيم لهذا النبي الكريم.

ونترك الحديث الآن لابن عباس - رضي الله عنهما - حبر الأمة، وترجمان السنة، ليحدثنا عن هذا السفر، كما سمعه من سيد البشر ﷺ.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء إبراهيم عليه السلام بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي تُرضعه حتى وضعها عند البيت - أي الكعبة - عند دوحه - أي: شجرة كبيرة - فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعها هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى - أي: ولى - إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، قالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فأنطلقت إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يروُّهُ، استقبل بوجهه البيت، ثُمَّ دَعَا بهؤلاء الدعوات، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّنَا إِنِّي اسْتَكْتُتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وجعلت أم إسماعيل تُرضعُ إسماعيل، وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء، عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتَلَبَّطُ - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفاً أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي

الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت، فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمع إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه - أي تجعله مثل الحوض - وتقول بيدها هكذا، وجعلت تعرف. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - قال النبي ﷺ: «رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تعرف من الماء، لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً - أي يحوم على الماء - فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريتين - أي رسولاً -، فإذا هم بالماء. فرجعوا، فأخبروهم، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم. فنزلوا، فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل آيات، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك، زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا - وفي رواية: يصيد لنا - ثم سألتها عن عيشتهم وهيتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق

وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك، أقرني عليه السلام، وقولي له يُغَيِّرُ عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهدٍ وشدةٍ. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده فدخل على امرأته، فسأل عنه، قالت: خرج بيتي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعة وأنت على الله تعالى، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يُوافقاه. معنى لا يخلو: لا يخلط بهما غيرهما.

وفي رواية فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيدُ. فقالت امرأته: ألا تنزل، فتطعم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم - قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بركة دعوة إبراهيم عليه السلام» قال: فإذا جاء زوجك، فأقرني عليه السلام ومريه يُبَيِّنُ عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسن الهيئة، وأنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام،

ويأمرُكَ أن تُثبِتَ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسِكَ، ثم ليث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبُري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه، قام إليه، فصنع كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمركَ ربُّكَ؟ قال: وتُعِينُنِي، قال: وأُعِينِكَ، قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حوله. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يُناولُه الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم. [رياض الصالحين: ١٨٧٦].